

# المصطلح الصوفي

## نشأته - خصوصياته - زحدياته

د / سعاد الحكيم  
رئيسة قسم الفلسفة - الجامعة الأمريكية -  
لبنان

### تقديم

من قديم القول أن نؤكد على أن التجربة الصوفية المبدعة للغة الصوفية تجد مرجعيتها في القرآن. فلقد سبقنا الى اثبات ذلك مستشرقون وعرب ومسلمون حين تبناوا مقولة إسلامية علم التصوف، ولاسيما قرآنيته، في مقابل مقولات ترده الى مصطلحات ومرجعيات مدونة أو معيوشة متمثلة في حكمة اليونان أو زهادة الرهبان، في نيرفانا هندية أو طاوية صينية، في أفكار صابئة أو هرمسية، زرادشتية أو مجوسية، أو أية فلسفة أو ديانة تلامحت ظلالها لباحث عبر لفظ أو قول.

ألفاظ لامس حسابها الألف اتخذت مواقعها في معاجم الصوفية عن طريق النحت والتوليد أو الاشتقاق والتحوير والإضافة، ومع تطور التجربة والمعرفة والأدوات كان يتوضح المدلول، وتتعمق المعاني وتتوسع وتتميز.. ومن ثم بالتداول ثبتت المفاهيم، كما تحدد بدقة مجال العلم الصوفي ومقاله وموضوعاته وغرضه الخاص.

هذه الثروة اللفظية الدقيقة، أرى- إستنادا الى معرفتنا بخبرات السلف وبرامج تعليمهم -أنها تجد منبعها في قدرة القرآن على تفجير الطاقة اللغوية عند الصوفي. وهو الذي عندما سمعت قريش آياته العربية اتهمت نبي الاسلام بأن نبوته ليست حقيقية بل هي تجربة لغوية شعرية، تختلف في طبيعتها عن الرسائل السماوية، ونعتته بقولها "شاعر مجنون"(1) ..

في ميادين المعارف العربية

فإلى زمن قريب كانت معاجمنا

لاسلافنا العالمين بها،

الاسلامية كافة شاهدة على طواعيه اللغة

وشاهدة على امكانات اشتقاق وتركيب تنفتح على اللامعدود من المفردات، ومؤكدة بان الخرس الذي يصيبنا حين نقف عاجزين عن ابداع مفرد ما، نحتا او اشتقاقا، ليس خرسا مصدره مقدرة اللغة وطاقاتها بقدر ما هو غياب معرفي وتخلف علمي في مجال المسميات لا الأسماء، بالاضافة الى افتقاد اجيالنا تدريجيا للغة العربية من البرامج التعليمية، بسبب غياب منهج السلف في حفظ القرآن وتفكيك التراث.

لذا فإن العودة الى خطاب الصوفية والى اللغة الاصطلاحية التأسيسية تبدو ضرورية للنشاطات العربية الراهنة، التي تسعى الى ايجاد معجمية علمية وفلسفية لابد منها لاستيعاب العلوم الطبيعية وعلوم الانسان والمجتمع، هذه العلوم التي تميز الانسان المعاصر المنفتح على الكوني والشامل. وتجدر الاشارة الى أننا لاناخذ من البصوفية مصطلحاتهم التأسيسية جملة ونقحمها في مجالنا الفكري أو العلمي المعاصر؛ لأن الكثير منها فقد طاقته وحيويته. اننا نأخذ منهم المنهج والعقلية، نأخذ خطتهم في ايجاد المفردات. وشجاعتهم في تداولها وتقديمها، وفي تأصيلها وتوصيلها. وقد قسمت البحث الى ثلاثة محاور وخاتمة :

- 1 - نشأة المصطلح الصوفي ونموه وتدوينه.
  - 2 - خصوصية المصطلح الصوفي.
  - 3 - التحديات التي يواجهها هذا المصطلح.
- الخاتمة، وتكلمت فيها على عالمية علم التصوف ومصطلحه.

## **النشأة والنمو**

**(القرن الاول الهجري - السابع الهجري)**

### **1 - المعجم معجمان :**

وقت خرج الحضور الاسلامي من المدينة بدأ العلم يتشظى ويغيب العالم الموسوعي

الشامل لتبدأ الفروع بالاستقلال والنمو، ويكون لكل اختصاص منها رجاله ومصطلحاته. ومن أوائل هذه العلوم علم التصوف الذي نشأ متزامنا مع علمي التفسير والفقه، بل يمكننا اعتبار علم التصوف مجالا معرفيا ظل مواكبا لعلم تفسير القرآن، وظل متداخلا ومتشابكا ومتلازما معه (1).

منذ بدايات نشأة علم التصوف -وكما أكدت في معظم أبحاثي- وجدت أنه تفرع الى تصوفين: قطاع عمل ومعاملة ومجاهدة وتصفية وتنقية وتهذيب، وقطاع عشق وكشف ومشاهدة وفناء ومناجاة ومواقف ومخاطبات.

وذلك أنه أول رصدنا لوجود الانسان الصوفي وتجلياته في النصوص، مستقلا عن المحدث والقارئ والمفسر والفقيه والاصولي والمجتهد، لاحظنا أنه يفترق الى نوعين متغايرين مثل مقدمات التصوف الأول شخص الحسن البصري (ت 105هـ)، وتمثل التصوف الثاني بشخصية رابعة العدوية.

و مع الأول نشأ معجم الفاظ المعاملات والمجاهدات والسلوكيات، ووضعت رابعة الحروف الاولى من معجم ألفاظ ومفردات الشهود والعرفان... وسوف نأخذ نصا لكل من الحسن ورابعة ونبين ولادة هذين النوعين من التصوف، وبالتالي ولادة نوعين من المنطلقات والاهداف وخطة الوصول ومعجم المفردات: ونوعين من نظرية في الله والانسان والكون، وأشكال العلاقات فيما بينها.

يقول الحسن: "فاحذر هذه الدار الصارعة الخادعة الخاتلة التي قد تزينت، وغرت بغرورها، وقتلت أهلها بأملها، وتشوقت لخطابها فأصبحت كالعروس المجلوة، العين إليها ناظرة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلهم قاتلة.." (حلية الاولياء ج2، ص134). كما يقول أيضا: "والله يا ابن آدم لئن قرأت القرآن ثم أمنت به، ليطولن في الدنيا حزنك، وليشتدن في الدنيا خوفك، وليكثرن في الدنيا بكاؤك.." (الحلية ج2، ص133-134).

يمكننا اجمال فكر الحسن الصوفي بهدف واحد ولد مفردات أمهات تفرع عليها جملة اقواله.. وهدف الحسن غير المعلن في النص والذي يمكننا كشفه اذا فككنا

خوفه من النار هو رضى الله. فالحسن ينهج طريق العمل والرياضة للوصول الى رضى الله مجتازاً جحيم غضبه. ولذا يدور نصه حول مفاهيم تبين للمسلم عوائق طريق الرضى وحوافزها، كالفقر والزهد والنظر الى الذنوب والاعتبار والحزن، والتوبة والمراقبة...

أما من نصوص رابعة، فنختار أبياتها المشهورة :  
أحبك حبين حب الهوى      وحباً لأنك أهل لذاكا  
فأما الذي هو حب الهوى      فشغلي بذكرك عمن سواكا  
وأما الذي انت أهل له      فكشفك للحجب حتى أراكا  
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي      لكن لك الحمد في ذا وذاك  
واقول : الواضح هنا هو ان هدف رابعة هو الوصول الى حب الله، الى أن يحبها الله وليس فقط ان يرضى عنها.. فدارت معظم نصوصها على حبها الشخصي لله(2)، كاشفة عن دور الحب في تخليص الطاعة من التكلف والمجاهدة.

فحبها الاول لله، حب الهوى هو الذي جعلها منشغلة بذكر محبوبها. ذكر لله متواصل، عبادة بالحب ذهبت كلفتها وبقيت لذتها.. ولا يخفى ان هذا الانشغال بالذكر سوف يتطور لاحقا الى غيبة بالذكر وفناء وحضور وبقاء.

أما حبها الثاني لله، الحب الذي يستحقه مقام الالهية- هذا اذا استطاع فعلا انسان ان يحب الله سبحانه كما هو أهله- فقد أوصل النص الى معجم الحجاب والكشف والرؤية.

والبيت الأخير من شعر رابعة يؤكد على تفارق خطي التصوف المذكورين، فعلى حين خط المعاملات يؤكد على جهد الانسان وإرادته ودوره في اتيان الطاعة والكسب نرى رابعة هنا تتبرى من حولها وقوتها مما اوجد لفظ التبري وصولاً الى ما يصطلح الصوفية على تسميته بـ "اسقاط التدبير".

## 2-المجالس الصوفية / المشافهة :

بداية من اواخر القرن الأول وطوال القرن الثاني ظهرت مجالس علماء الصوفية، فهذا مجلس الحسن البصري يؤمه خيار رجال زمانه طلبا للمعرفة أو التربية والسلوك. وهاهو ايضا الحسن كلما خفت نيران وجده، وقصر وقودها الذاتي، يقول لصاحبه : "هيا بنا الى المؤدبة"، ويقصد رابعة...

وتوالى المجالس : البصرة، الكوفة، دمشق، بغداد، خراسان، وفي معظم مجتمعات المسلمين في ذاك الزمان.. مجالس مقابسات اما بين عامة وصفوة تظل في اطار الاسئلة والاجوبة؛ أو بين صفوة وصفوة الصفوة يتبادلون فيها معارفهم الصوفية ونتائج تجاربهم الذوقية، يرتبون علامات اسفارهم الباطنة الغيبية والظاهرة الشهادية في مدارج قرب لاجدال فيها ولا خصام. فان تذاكروا في الصبر مثلا، يعرف كل جالس الصبر من خلال تجربته معه، ينظر الى أحداث حياته وتفاعلات ذاته في مواقف الشدة والأزمات ويتكلم. يضع اقدامه في مقامه ويتكلم، فلا تنظير ولا تفكير ولا ترتيب لنتائج منطقية على مقدمات افتراضية، بل نطق عن اختيار، ومن قوله يعرف كل جالس موقعه ومقامه ودرجته في معارج القرب، فإن نطق واحد منهم، وقال آخر : "هناك ما هو أحسن"، أي هناك معنى للصبر لم تصل اليه خبرتك، فالجواب دائما : "هات ما عندك"، وايضا الثاني يتكلم من مواقع اقدامه، من منزلته واختباره.

ومشهور ما حدث لابن الجلاء عندما سأل سائل عن مسألة في التوكل فاستمعه هنيهات وعاد بعدها ليحييه، وحين سئل عن سبب ذهابه وعودته، قال : "استحييت من الله ان أتكلم في التوكل وعندي أربعة دوانيق"(3).

فالمؤسسون للتصوف الاسلامي كان الواحد منهم مثلا للصدق في القول والإخلاص في التعامل، إذا تكلم فإنما هو ينطق من مقامه، ويترجم عن حاله(4)، إذن لا ينطق إلا حقا.. وهذا في رأيي ما جعل أقوال الصوفية الأوائل محفورة في ألواح ذاكرتنا الاسلامية.. ألم يضم الشعر الديني القديم والحديث أبياتا في الحب الإلهي تفوق بالفاظها وتراكيبها وصورها الأبيات الأربعة المشهورة لرابعة؟! ألم يخاطب عابد

معبوده بفناء يتخطى بساطة الخوف والطمع وعبادة الله لذاته لا لعطاءاته كما في قول رابعة "ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعا في جنتك وإنما وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك؟! وهذا التدوين الأول على ألواح الذاكرة، وعلى صحائف رواد المجالس، هو الذي مهد وغذى عصر التدوين (5).. فلم ينقض القرن الثاني الهجري إلا والمفاهيم الصوفية، التي أصبحت مقامات الطريق فيما بعد، متداولة في المجالس كلها تقريبا. من تلك المصطلحات : التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضى.. الى جانب الأحوال الحادثة للوجدان : كالقرب والمحبة والخوف والرجاء والشوق والأنس والطمأنينة والمشاهدة واليقين.

### 3- تثبيت المفاهيم وجدولة الألفاظ التقنية الصوفية :

أطل القرن الثالث الهجري وهل عصر الكبار : معروف الكرخي (200هـ) وسري السقطي (257هـ) وذو النون المصري (245هـ) ويازيد البسطامي (291هـ) وأبو القاسم الجنيد (298هـ) وسهل التستري (283هـ) والحلاج (309هـ) والمحاسبي (243هـ) وعمر بن عثمان المكي (391هـ)..

معهم جميعا، وعلى تفارق تجاربهم أو تلاقيها، تكاملت العوامل التي تجعل من التجربة الصوفية علما قائما بنفسه، له مناهجه الخاصة به، وأنظمته الفكرية، وأجهزته المعرفية، وأيضا معجم اصطلاحاته ومفرداته التقنية.

في هذا العصر كان الواحد من هؤلاء الكبار مقصد أهل زمنه من طالبي التصوف، يسألونه عن حقيقة معاني العبادات والمجاهدات والرياضيات المقربة من الله، عن معنى أبعد من المعنى الظاهر (6)، وعن كيفية اتيان للفعل أبعد من الكيفية المعروفة. ونعطي مثلا على التجربة الصوفية في إعادة صياغة المصطلح اللغوي وإخراجه من العام الى الفني والخاص : فالتوبة تعني في اللسان العام الرجوع عن الذنب، ولكن التوبة الصوفية ذهبت الى معان أبعد من ذلك، مع احتفاظها الكامل بالمعنى الأول. يقول سهل : "التوبة أن لاتنسى ذنبك"، ويقول الجنيد : "التوبة هي نسيان ذنبك" (المقصود من غلبة ذكر الله وعظمته على قلب التائب)، وقال ذو النون

[illegible]

ورموزهم، ويمكن للباحث ان يرصد ورودها ويستنبط معانيها من السياقات التاريخية واللغوية والفكرية. كما فعلت في كتابي "المعجم الصوفي" الذي أفردته لتثبيت معاني الألفاظ الصوفية عند محي الدين بن عربي وتلازما عند متصوفي الاسلام في القرون الهجرية الستة الاولى. لأن نص هذا الصوفي الفذ استفاد من التراكم المعرفي السابق واتسع لكل ما بقي حيا وفاعلا الى زمنه من اللغة الصوفية والفكر الصوفي والمعاناة الاخلاقية والوجدانية الصوفية(9).. بالاضافة الى التجديد الذي أحدثه على كافة مستويات الوجود الصوفي في الفكر الاسلامي، والذي سوف اتعرض له عند كلامي على الامكانات المفتوحة امام تجديد اللغة الصوفية بل واللغة العربية نفسها.

وهكذا لم ينته القرن السابع الهجري حتى كان المصطلح الصوفي في معجميه الاثنين قد تكاثر وترسخ، وشكل ثروة لفظية عاش من مفرداتها بالتداول مئات الالفاظ المصطلحية التي خدمت التصوف والفكر الاسلامي العام والوعي الروحي عند الانسان.

### **خصوصية المصطلح الصوفي**

#### **1 - اللغة الصوفية واللغة الفلسفية :**

اذا تذرع قائل بتصورات ورؤى وترجمات ليقول عن فلسفتنا العربية انها فلسفة اليونان كتبت بأحرف عربية فهذا طريق مسدود على المنقبين في صحائف الصوفية، واننا إذ ننهب الى أصالة التجربة الصوفية في منابعها العربية الاسلامية، فإنما نريد بذلك أن نؤكد على كون المصطلح الصوفي يجد معناه في اللغة العربية عامة ولغة القرآن خاصة بعيدا عن الطرائق الروحية لأية فلسفة أو ديانة أجنبية. وأعطي مثلا على ذلك مفرد "فقير" : ان كثيرا من الصوفية خاف على نفسه وعلى غيره فتنة الغنى، ففضل عصمة الفقر، استمسك به حتى عرف أحيانا السالك الصوفي باسم "الفقير". وهذا الاسم له مقابل في التراث الهندي، ولكن هل الفقير الهندي هو صنو الفقير الصوفي؟ نظرة وإن كانت خارجية وظاهرة تبين مدى مفارقة هذين المسميين، فالصوفي نظيف البدن والثياب والاحتياجات ويتحرى النظافة في كل أموره.. مما



يدل على انتماء الواحد منهما الى مجال معرفي مستقل وقائم بذاته وانه يستمد معناه منه.. وكذا لو أراد الصوفي الهندوسي أن ينقل نصه الى لغة لاتينية فسوف يجد صعوبات في نقل مفاهيم ومفردات كالتناسخ والتقمص والنرفانا...

وهذا لا يعني ان كل مصطلح أو مفرد هو حبيس جمال معرفي خاص، وإلا امتنع التواصل فيما بين الناس. ويكفي أن نشير الى أن تجربة الصوفي المعيشة والتراكمية هي التي ولدت المعاني وفي الوقت نفسه المفردات الدالة عليها، كما ولدت أيضا انفتاحا وتوصلا مع ميادين معرفية عديدة، كالفلسفة وأصول الفقه وفقه اللغة...

## 2 - تداخل المصطلحات الصوفية والفلسفية :

على الرغم من اختلاف التجريبتين الصوفية والفلسفية إلا أن المعجم الفلسفي شكل في مرحلة متأخرة رافدا من روافد اللغة الصوفية (10).. ويكفي أن أورد لبعض المصطلحات التي يستخدمها محي الدين بن عربي كمفردات "للإنسان الكامل" وهي على سبيل المثال لا الحصر : حقيقة الحقائق-الحق المخلوق به-فك الحياة-أصل العالم-أصل الجوهر الفرد-الهولي-المادة الأولى-جنس الأجناس-الحقيقة الكلية-الفلك المحيط-مركز الدائرة-العقل الأول-القلم الأعلى-الدار البيضاء-العرش المجيد-الإمام المبين-الروح الكلي-روح العالم-نور محمد صلى الله عليه وسلم-اليقين الأول-عرش الله-ظل الله-النسخة العظمى-الكلمة الجامعة-البيت الأعلى-المختصر الشريف-عين الجمع والوجود-المعلم الأول-الممد الأول-البرنامج الجامع-البرزخ-الإنسان الأزلي (11)...

هذه المرادفات، وإن لم يستخدمها ابن عربي كلها كجزء من لغته ومعجم مفرداته، إلا أنها تثبت مشروع التواصل والحوار الذي أقامه شيخ الصوفية الأكبر مع كافة متصوفي عصره وفلاسفته، وتؤكد الوصل والقطع اللذين أشرنا إليهما سابقا حين نوهنا عن تغاير المعاني والمسميات بتغاير فضائها المعرفي وفي الوقت نفسه بضرورة الترجمات وتعديلها وتنقيحها المتواصل لأنها جسور التواصل والحوار...

### 3- التعدد والاختلاف في المعاني :

في حين اهتم رجال الفقه بأعمال الإنسان وضبطوا صحتها، انشغل اهل الصوفية بالإنسان نفسه صاحب الأعمال واتجهوا صوب تنقية باطنة وتهذيبه، لأنه اذا صلح الاصل صلح الفرع. ففي عالم الصوفية الانسان أصل وما أعماله سوى فروع وتجليات ودلالات وعلامات.. وهذا لايعني أن هوية الانسان تبقى فوق التغير، بل هي مفتوحة على وجوده الواقعي الكائن في التبدل، في الترقى والتراجع. فالصيرورة والتحويلات أساسية في مفهوم الصوفي عن الذات والهوية، عن الرحلة والحقيقة... في أية لحظة قد يتبدل كل شيء، قد ينقلب العصي تقيا والتقي عصيا.. عالم متحرك، محل لأثار أسماء من هو كل يوم في شأن.

وانطلاقا من هذه الحركة الساعية الى الترقى باستمرار، نرى الصوفي ومنذ البداية يتأسس على القبول بالتعدد للمعاني داخل المفهوم الواحد.. وهذه خصوصية صوفية ظهرت في مجالس مقابساتهم.. "ويحكى أن مالك بن دينار والحسن البصري وشقيق البلخي ذهبوا لزيارة رابعة فتحدثوا عن الاخلاص. فقال الحسن : "ليس بصادق في دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه". فقالت رابعة : هذا غرور. وقال شقيق البلخي : "ليس بصادق في دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه" فقالت : رابعة : هناك ما هو خير من هذا. فقال مالك بن دينار : "ليس : "ليس بصادق في دعواه من لايتلذذ بضرب مولاه". فصاحت رابعة : هناك افضل من هذا. فقالوا لها : تكلمي أنت اذن، فقالت : "ليس بصادق في دعواه من لم ينس الضرب في مشاهدة مولاه، مثل نسوة مصر اللاتي نسين ألام أيديهن لما رأين وجه يوسف"(12).

هذا الحوار يؤسس لتعدد القراءات للنص الواحد، وتعدد المعاني للمصطلح الواحد وصولا الى تعدد المستويات في المعنى الواحد. هذا الحوار يؤسس لقبول المعاني المتعاقبة والمتزامنة معا. فإذا رجعنا الى "لمع" السراج نجده عند تدوين أقوال الصوفية في المقامات والأحوال يحرص على ترتيبها بحسب مراتب السالكين. فهذا خوف المريدين وذاك خوف المحققين، وهذه توبة المبتدئين وتلك توبة الواصلين وهكذا. كما

أنني عندما كتبت مقدمة كتابي "المعجم الصوفي توقفت عند استخدام ابن عربي للمصطلح الواحد بمعان متعددة متعاقبة ومتزامنة، وذلك تحت عنوان "معراج الكلمة". وفيه شبهت حركة معنى الكلمة عند ابن عربي بالمعراج، لأنها تعرج من مضمون أدنى الى مضمون أرقى ثم أعلى، لأن ابن عربي يتكلم "بلسان أعلى من لسان" وأعطيت مثلاً مفرد الغربة الذي يحدده ابن عربي في معنى أول بـ "مفارقة الوطن في طلب المقصود" ولكن العارف غربته مفارقة امكانه، أما العارف المكمل فليس عنده غربة أصلاً لأنه ثابت في العدم لم يفارق امكانه(13).

وهكذا تأسس الانسان الصوفي على قبول تعددية المنازل وتراتب مستوياتها داخل الأمر الواحد.. فالوجود مراتب والانسان قدرات وطاقات وتوجهات ومرادات، وكل له مقام معلوم ومنزلة ينزلها بحسب توجه ارادته وفعالية قدرته. وبحسب هذا المقام وتلك المنزلة تصطبغ رؤيته لكل شيء، مع عدم الغاء الآخر أو تهميشه أو اقصائه. هنا للمثال نقول : التوحيد في كتب الصوفية يتدرج على أربع مراتب، من توحيد العوام القائم على التصديق الى توحيد خلاصة خاصة الخاصة المتمثل بالفناء في التوحيد(14). وحيث أن المصطلح ينتمي الى منظومة فكرية فإن تغيير معناه يؤدي الى تغيير بنية المنظومة نفسها. وهذا مما يؤكد على انفتاح الانسان الصوفي وفكره على تنوع المنظومات الفكرية في الفضاء المعرفي الواحد.

## تحديات

### تحديات المرحلة التأسيسية الاولى :

أول تحد واجه رجال الصوفية في عصورهم الاولى هو ايجاد لغة خاصة بهم تكون قادرة على ترجمة مواجيدهم، وجوانيتهم، والتعبير عن أحوالهم، ووصف مجاهداتهم أثناء تنقلاتهم في مقاماتهم الروحية. فكان لابد من ايجاد لغة جديدة يبدعون مفرداتها الخاصة باتصال وانفصال معاً عن المعجم العربي العام.. وبدأت مناهجهم تظهر في ابداع المصطلح، ولعل أهمها :

1 - تحويل كل فعل يقومون به الى مصطلح باستخدامه بصيغة الاسم أو المصدر

مثلا، إن جاهدوا لقطع علائقهم بالكون يصطلحون عن ذلك بـ : قطع العلائق... وكذا مفردات كالتحير، والمشاهدة والذهاب والاختيار والمحو والملحق والتلوين والتلف والشرب والذوق(15)...

2 - جذب المفردات المتشابهة والترادفة والاستفادة من الفروق بينها لتقديمها بمثابة مصطلحات... كالمحادثة والمناجاة والمسامرة والمخاطبة، كالكشف والمكاشفة والمشاهدة والشهود... كالسحق والمحق والمحو وألوان الفناء...

3 - صياغة المفردات المتكافئة المتجاذبة في ثنائيات متناقضة، كالقبض والبسط، والغيبة والحضور، والسكر والصحو، والفناء والبقاء(16)...

4 - استدعاءات المصطلح وإحياءاته : كالاسم والرسم والوسم، العين والغين والرين، التجلي والتجلي والتخلي، الأصل والوصل والفصل.

5 - التسمية : الصوفي مولع بالتسمية، ويعتمد الى اعطاء اسم لكل مرحلة من مراحل سلوكه مهما كانت فردية وشخصية.. فإن احتار أو عشق مثلا تتحول هذه الاحاسيس الجوانية الى اسم مقام من مقامات الطريق أو حال من احواله، فيقول : مقام الحيرة أو وادي الحيرة، حال العشق أو وادي العشق، وهكذا عبر التسميات تولد المصطلحات.

## 2 - تحديات مرحلة النضوج :

الى جانب قدرة الصوفي على ابداع المصطلح، على المستوى اللغوي وانطلاقا من الجذر، نلاحظ انه يردف ذلك بمزايا صفاتية إنسانية تساعد على تعيين المصطلح وتثبيته ونشره... فالصوفي نظرا لتحرره النفسي من كافة العوائق والعلائق، يعيش منطلقا قادرا على الابداع دون خوف من قيل وقال. وقد ظهر هذا التحرر على مستوى النص وتوليد مفردات ترسم مساره الوجداني. إن الصوفي يدخلنا معه الى زوايا شكه وتحيره، واصفا مسميا، كاشفا عن وجه مشترك بين بني الانسان، عن وجهين : وجه مضمون به، أي مسكوت عنه، لا يقال، ووجه علني ظاهر، يقال.

والصوفي أيضا حين ولد مصطلحه لم يكن يخرج من الحرف حرفا وانما كان يغمس قلمه في معاناته، لذا كان مستعدا حتى الشهادة للدفاع عن كل مفرد. وهكذا اصرار يثبت المفاهيم عبر الشروحات والتوضيحات.

ولعل التحدي الاكبر الذي واجه الصوفية بعد مرحلة ايجاد لغتهم الخاصة بمفرداتها الاصطلاحية، هو العمل على نشر هذه اللغة والدفاع عن تداولها بين الناس، وقد استخدموا وسيلة فعالة اعطت نصهم بعدا عالميا وهي القصيدة. فقد صاغوا مفاهيمهم شعرا ضمنوه مصطلحاتهم، فنقلوا المصطلح الصوفي الى مدارات أوسع وصولا الى العالمية المتمثلة في منطق الطير لفريد الدين العطار، ومثنوي جلال الدين الرومي، وتائية ابن الفارض، وعينية عبدالكريم الجيلي.. معان ومفردات خرجت، برائق الشعر والالاحاح على ما هو انساني، من حدود جغرافية دين من الأديان الى جوهر الانسانية الواحدة الكائنة في أعماق كل انسان...

### 3 - مرحلة التجديد :

عندما يغيب صاحب اللغة والتجربة وتبقى الكلمات، نلاحظ أنها تواجه أحد مصيرين : إما أن تبقى حية متداولة وحافية لطاقة الدلالة على تجربة الانسان عامة؛ وإما أن تتفرغ من شحنتها الدلالية وتنحبس في وجود قاموسي معجمي يهم المختصين بهذا العلم أو ذاك.

وكذا واجهت اللغة الصوفية وسوف تظل تواجه هذين الموقفين السابقين وعلى ذلك فماذا تعني لإنسان اليوم مفردات كجمع الجمع، وفرق الفرق، وأنا بلا أنا، وأنا أنا، وأنا أنت، والذهاب وذهاب الذهاب؟ وأقول : حتى لوكانت تجربة إنسان اليوم تشمل هذه المواجيد إن هذه الألفاظ الصوفية القديمة لم تعد تملك طاقة التعبير عن أحاسيس الانسان المعاصر وأحواله النفسية ومقاماته الروحية. لذا لابد من التجديد وذلك يعني الاحتفاظ بما هو حي وفاعل، مع فتح مجالات جديدة للأداء والتعبير عن الفرقان من جهة، ولتوصيله من جهة أخرى.

وهنا أشير الى دراسة قمت بها عن التجديد الذي أحدثه محي الدين بن عربي في

ميدان التجربة الروحية ولغتها. وأقول مسبقاً، لا لغة جديدة دون تجربة جديدة أمام الوجدان والفكر الصوفيين... فبداية، نرى ابن عربي يفتح أمام الصوفي أبواب عالم جديد، ينقل التجربة الصوفية من الجوانب الى الكونية مع الاحتفاظ بكل ما هو جوانبي وإنساني.. يسافر في العالم الكبير والعالم الصغير على حد سواء.. وهذا السفر الجديد اضطره الى وصف جديد، وتسميات جديدة؛ مما الجأ الى ايجاد مفردات وأسماء بالاضافة الى تطويعه للغة القديمة واستعادتها بمعان جديدة.. وهنا يجدد ابن عربي على مستوى اللغة، وقد تتبعت بدقة منهجه في ابداع المصطلحات فوجدت أنه يعتمد الى توليد الاصطلاح ليس من نحت كلمة مفردة بل من جمع كلمتين بنسبة ما، فهو مثلاً يضيف كلمة أرض الى كلمة حقيقة فيولد الاصطلاح من نسبة الاضافة : "أرض الحقيقة"؛ وكذا أنتج نهر القرآن، بحر الأرواح، جلساء الحق، جنة الاعمال، جنة الاختصاص... كما وظف طريقة ثانية أصيلة ونافعة، إنه يصف الأرض بالواسعة فيولد الاصطلاح من الوصف : "الأرض الواسعة".. فالأرض تتغير في مفهومها أرض الحقيقة، وهذان المصطلحان يغيّران في مفهومهما الأرض الواسعة. وفي طريقة ثالثة عمد ابن عربي الى النسبة، وولد المصطلح من نسبة لفظ الى آخر مثلاً : ولي عيسوي، تجل ذاتي، سمع ثبوتي.. وهكذا تولدت مئات المصطلحات من صيغة الاضافة وتحويل المصطلح من اللفظ المفرد الى التعبير المركب.

ما كانت تلك المصطلحات العديدة الجديدة لتنشأ وتعيش لولا أن ابن عربي استطاع شق ميادين جديدة في التصوف وعالم الروحانيات. ولذا، اذا أردنا اليوم تجديد هذا المجال الفكري واللغوي نحن أمام تحدين، الاول تجريبي ذوقي والثاني لغوي.. بالتحدي الأول نفتح ميادين جديدة أمام الوجود الصوفي، كأن ينتقل الوجدان الصوفي من سفره في الأعماق والافاق، في المجتمع ومشاكله وأمراضه، الى سفر في تكوين الانسان وبنائه، الى سفر في الهوية والوجود الجماعي، الى سفر في شمولية الخطاب الإلهي للناس وتوجهه لكلية الانسان دون حبسه، إما في خطاب روحي وجواني وإما في خطاب حسي مادي، أو في خطاب أخلاقي جمالي، خطاب عقلاني

برهاني، خطاب اجتماعي سياسي...

وبالتحدي الثاني، أي اللغوي، نستفيد من مناهج السلف في توليد المصطلحات، ننحت ونركب ونستعيد المفقود ونتواصل مع المسميات، حتى نتمكن من معاشتها وتسميتها. ونجهد لتثبيت المفاهيم ونشرها بكافة الادوات التربوية المتاحة نثرا وشعرا.. وكافة وسائل الاتصال المعاصرة. لا يكفي أن نبدع المفرد التقني بل لعل الأهم توصيله واستخدامه بشتى وسائل الاعلام حتى تتعوده الأذان وتتقبله الافهام، ويصبح مألوفا ومعروفا بالتداول.

فاللغة الجديدة ليست نتاج فرد ولانتاج مجمع علمي بل هي نتاج مجتمع يتشارك بوضعها ونشرها وقبولها أو رفضها..

### خاتمة

اللغة هوية وجذور وثقافة وتاريخ ومستقبل.. وتغيير اللسان اقتلاع من الجذور وتغريب ليس فقط على صعيد الثقافة وإنما تغريب حضاري وقومي ووطني.. وأقول ونحن نشهد انزياح جماعات من شباب مجتمعنا وتغريبها إن المصطلح هو الحامل للغة، لذا فإن المصطلحات هي الموضوع الأول بل ولعله الأكبر الذي يقلق العامل منا في مضمار التغريب أو التعليم بالعربية أو تنظيم الفكر العربي وضبط المعنى والحقيقة في وقتنا الراهن.

ولابد من أن نتحرك، ونستفيد من تجارب السلف ومناهجهم ونعيد صياغة مصطلحاتنا المعاصرة وضبطها واغنائها وتنظيم أدوات انتاجها. وإنني اقترح على صعيد المصطلح الصوفي، وخاصة أمام هجمة الترجمات الغربية على المؤلفات الصوفية العربية أن نستفيد من النقل ونعمل على وصول المصطلح الصوفي الى العالمية بالكيفية المناسبة.. فهذا المصطلح الذي حافظ على وحدة مفهومه مع تعددية معانيه واختلافات مستوياته، عبر قرون من الزمان، لأخاف عليه من التشتت والضياع في لغات أجنبية ولكن أخاف عليه مفارقة معناه الى معنى مغاير يأخذه من المجال الفكري الذي انتقل إليه.

لذا، تقع علينا مسؤولية ضخمة. فحين نساعد على نقل التراث الصوفي الى لغة أجنبية فإننا إنما نقدم الاسلام للعالم في خطاب يدل عليه مصطلح، وأساهم هنا باقتراحين، بالاضافة الى المقترحات الواردة خلال المداخلة، علّ خبرتي تكون نافعة في هذا المجال(17):

1 - على الرغم من تقديرنا لمحاذير الترجمات إلا أننا نسلم بأنه لابد منها للتواصل والحوار.. فحين نشارك في مؤتمرات عالمية يستمع فيها إلينا أحيانا أجنب لا يعرفون العربية يصبح نقل المعاني أمرا محتما. وهنا أجد أن المصطلح الصوفي حين تواضع عليه أهله كان تواضعهم عالميا.

فإن تعيين المدلول الدقيق والثابت لكل مصطلح كان يتم عبر مداولات ومطارات شفوية في مجالس مخصصة، في ندوات، حيث كان المجتمعون يتحاورون فيراكمون المعرفة والخبرة والتجربة مما سمح بالتمييز بين مصطلحات لها تعريف واحد جامع مانع، ومصطلحات ظلت مفتوحة تحتمل تعريفات متنوعة.. والأولى بنا اليوم مع تقدم خبراتنا أن نتابع مداولاتهم ومقاساتهم من أجل تثبيت معنى المصطلح العربي في مقابل المصطلحات الموازية في الفلسفات والأديان العالمية الحية. فنسهم في إنشاء علم عالمي مقارن للمصطلح الصوفي" يأخذ فيه المصطلح العربي مكانه أو يتحدد معناه بواسطة تشابه وتميزه معا عن الآخر الشريك.

2 - إن الآخر كان دوما جزء من الذات عند الصوفي، مات من أجله، أثره على نفسه، دعا له بظهر الغيب، وإن قراءة مفردات أي معجم صوفي تكشف عدم وجود أي مصطلح يدل على العنف والتفرقة والتباعد والتباغض والانتقام. بل اذا حاولنا عد المصطلحات الدالة على الوحدة والجمع والتآلف نجد أنها تصل الى 75-85% من كل معجم، مما يبين اسهام الصوفية في بناء وعي اسلامي واحد مؤسس على القبول بالتعدد في مجال علانقي تحكمه مفاهيم الصحة والمحبة والتآخي، مع الدعوة لتحمل الأذى من الناس والصبر عليه والعفو والرحمة؛ وكلها مفاهيم تشكل الخطوة الأولى نحو التكامل الاجتماعي.



. ونحن اليوم، أكثر حاجة من إنسان الأمس لاستعادة وعصرنة هذه المصطلحات الدالة على الانسان الكامل، على الوحدة والتآلف، وعلى الصفاء والوفاء والأخوة في مجتمعات تفرق باستمرار في تنازع المصالح والتباغض بالاحقاد وتتعرض للافساد عبر الاعلام والاعلان.

### الهوامش

- 1 - نحن نميز في هذه المداخلة، بين التجريبتين الصوفية والشعرية أو بين الصوفي والشاعر، وسوف نعود الى هذه الظاهرة.
- 2 - راء، Nwyia, paul. Exegese coranique et langage mystique Dar el-Machreq, Beyrouth, 1970.
- التفسير الصوفي للقرآن الكريم، جعفر الصادق، منقل من "حقائق التفسير" للساحي اشرف علي زيفور مؤسسة عز الدين بيروت 1993.
- لطائف الاشارات لأبي القاسم عبدالكريم القشيري، لحق ابراهيم بسيوني، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة، 1971.
- اعجاز البيان في تأويل أم القرآن، صدر الدين القونوي حيدر أباد (الركن، ط، ثانية 1929).
- تفسير القرآن الكريم عبدالرزاق القاشاني (منسوب خطأ لابن عربي) منشورات دار اليقظة العربية بيروت 1967.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع الثاني شهاب الدين الألوسي المطبعة المنيرية القاهرة 1345هـ تصوير دار احياء التراث العربي -بيروت، لبنان د.ت.
- تأويلات القرآن، داود القيصري مخطوط الظاهرية رقم 6824.
- إشارات القرآن، ابن عربي، مكتبة رفيق حمدان الخاصة، دمشق.
- 3 - من هنا تتوضح خصائص الحب الصوفي، وهو شخصي وعاطفة محظة مجردة عن كل هوى أو منفعة أو غاية سوى الله، ورابعة هي صاحبة الفصل الأول في شيوخ هذه الكلمة فيما بعد، فعلى حين تردد الصوفية الأوائل في استعمالها أمثال مالك بن دينار (131هـ) وعبدالواحد بن زيد (177هـ) نلاحظ أن هذه الكلمة شاعت في نص الصوفية بعد رابعة أمثال معروف الكرخي والجنيد والحاسبي وذو النون المصري ويحيى بن معاذ والحلاج وآخرين راء-المعجم الصوفي، سعاد الحكيم مادة "الحب".
- رابعة العنوية والحياة الروحية في الاسلام . طه عبدالباقي سرور، ص161-165.
- ابن القارض والحب الإلهي، د، محمد حلمي، ص، ص222-244 (الحب والمعرفة) ص278-307. (الحب والوحدة).

- قوت القلوب، المكي ج2 ص ص 99-164 (المحبة وهي المقام التاسع مع مقامات اليقين).
- اللمع، الطوسي ص ص 87-88 (باب حال المحبة).
- الرسالة القشيرية، القشيري ص ص 143-148 (باب حال المحبة).
- الفتوحات المكية، ابن عربي ج2 ص ص 241-320 (في معرفة مقام المحبة).
- دراسات فنية في الأدب العربي عبد الكريم اليافي، ص ص 315-317 (الحب بين البوح والكتمان عند ابن عربي).
- روضة التعريف بالحب الشريف، لسان الذين بن الخطيب، محق عيد القادر أحمد عطاء نشر دار الفكر العربي، 1968.
- Corbin en Islam Iranien, T3 PP 105-111 (la source preetetnelle do l'amour).
- Hiet de la Pholo. Islamique. PP. 278-283 (Ahmed Ghazali et le "pur amour".
- 4 - اللمع، ص 138.
- 5 - فالصوفي الأصيل هو من نادر ما أشار اليه الحارث المحاسبي حين قال : "أعز الأشياء في دار الدنيا عالم يعمل بعلمه، وعارف ينطق عن حقيقة (اللمع، 240-241)، ويقول الجنيد عنهم "كانوا يكرهون أن يتجاوز اللسان معتقد القلب" (اللمع 238) ويقول ابراهيم الخواص في المعنى نفسه، "لا يحسن هذا العلم إلا لمن يعبر وجده وينطق به عن فعله" (اللمع 238).
- 6 - فيما يخص التصوف لم يتأخر التدوين عن الظهور، وكان قبل التدوين الفلسفي وأصول الفقه وسبقته تجربة معيوشة.
- 7 - يعد الصوفيون من مأسسي علم التأويل في الفكر الاسلامي، وقد ميزو بدقة بين المعنى الظاهر والمعنى العميق للخطاب، أو ما يسمى اليوم بالبنية العميقة للنص، أو بالمعنى العلني والمعنى الكامن، المعنى المكشوف والمعنى المحجوب.
- 8 - اللمع، ص ص 69-68.
- 9 - لايتسع المجال في هذه المداخلة للكلام على ترميز الصوفية للأشياء والأفكار بالحروف والأعداد، ونكتفي بالإحالة الى،
- المعجم الصوفي سعاد الحكيم، المواد التالية، الألف (ص 76) - الباء ونقطة الباء (ص 181) ... كما يراجع ابن عربي طبع حيدر آباد، كتاب "الألف" وكتاب "الميم والواو والنون" وكتاب "الياء".
- 10 - أنه هنا بأن منهجي في دراسة المصطلح بدأ من اللغة والقرآن ومقارنة السياقات قد يكون منطلقا للعمل في المصطلح الصوفي بدل النقل والالصاق اللذين نجدهما يتكرران في المعاجم المتداولة.
- 11 - استخدم الصوفية الأوائل مفردات لاتزال موضع اشكالية تتطلب ان تكون موضوعا لمؤتمر خاص، أهمها الليبية وقد استخدمها بايزيد البسطامي، و: "الإن" و "أتى" وقد استخدمها الحلج.
- 12 - راء. "المعجم الصوفي"، مادة الانسان الكامل مع كافة الحواشي الشارحة لهذه المصطلحات والمثبتة لأماكن ورودها في نصوص ابن عربي.

- 13 - رابعة العدوية. عبدالرحمن بدوي ص159 (وكالة المطبوعات الكويت 1978).
- 14 - راجع المعجم الصوفي، ص، ص19-20.
- 15 - راجع رسائل الجود، ص ص. واحياء الغزالي، ص ص.
- 16 - راجع اللمع، ص ص109-452.
- 17 - هذه الثنائيات أو الجدلية بين ازواجيات متناقضة، شكلت احدى أهم الابداعات التي أنتجها الفكر الصوفي في بحثه عن الحقيقة.
- 18 - لي مقالات مترجمة الى الفرنسية، كما نشرت مع المستشرق الاسباني بابلو بنيتو كتاب "مشاهد الاسرار" لابن عربي.

## النشأة الإسلامية لمصطلحات علم الكلام والفلسفة الإسلامية

د / محمود يعقوبي  
معيد الفلسفة جامعة الجزائر  
الجزائر

في البداية ينبغي أن نتساءل : هل للمصطلح الفلسفي بداية؟ وفيما تتمثل هذه البداية؟ ويبدو لنا أنه لاسبيل الى الاجابة عن هذين السؤالين الا الرجوع الى اثار الأولين لمعرفة أول من أحس بالحاجة الى ضبط المصطلح العلمي والى معرفة طريقة هذا الضبط.

وفي رأي أرسطو ان الفضل في ذلك يرجع الى سقراط الذي اكتشف وظيفة الاستقراء في تحديد الصفات المشتركة الدائمة في الاشياء والتي تتمثل فيها ماهيات الاشياء(1)، وبالتالي يكون سقراط (470-400 ق.م) هو أول من اكتشف تحديد الماهيات وعمل على صياغتها في التعريفات، وبهذا يكون هو أول من انتبه الى اهمية ضبط المصطلح العلمي ودور هذا الضبط في تسهيل الحوار الفلسفي الذي كان يرجو عنه ولادة معان واضحة موحدة يجمع عليها الناس ويعدونها تعبيراً عن حقائق الأشياء الثابتة، خلافا لما كان يدعيه السوفسطائيون الذين كانوا يربطون الحقائق بوجهات النظر التي تختلف باختلاف المصالح والأهواء.

والذي يهمنا في شهادة ارسطو هذه هو أن سقراط اكتشف وظيفة الاستقراء في بناء نظرية التعريف، ولم يبدعها إبداعاً كما قد يتوهم بعض الناس. إذ الاكتشاف إنما يكون لامر موجود، ومعنى هذا أن الناس كانوا قبل سقراط يطلبون حقائق الاشياء، إلا أنهم كانوا يسلكون الى ذلك سبلاً ذاتية، مما نشأ عنه اختلاف المفاهيم بين الناس، ويكون سقراط قد انتبه الى وجود سبيل آخر الى ضبط المفاهيم، هو سبيل الاستقراء والتتبع واستخلاص الصفات الثابتة في الاشياء المستقرة، والتي بوجودها معا توجد الاشياء، ويزول احداها تزول الاشياء.